

## الباب الرابع والثلاثون: في البخل والشح وذكر البخلاء وأخبارهم وما جاء عنهم

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخُلُونِ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾<sup>(١)</sup> الآية وقال رسول الله ﷺ: «إياكم والشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم». وعنه ﷺ أنه قال: «البخل جامعٌ لمساوي القلوب، وهو زمامٌ يُقادُّ به إلى كل سوء». وقالت أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنهما: إن البخل لو كان قميصاً ما لبسته، أو كان طريقاً ما سلكته.

وقيل: بخلاء العرب أربعة؛ الحطيئة وحميد الأرقط وأبو الأسود الدؤلي، وخالد بن صفوان. فأما الحطيئة فمر به إنسان، وهو على داره ويديه عصا. فقال: أنا ضيف، فأشار إلى العصا وقال: ملكعاب الضيفان أعددتها. وأما حميد الأرقط فكان هجاء للضيفان فتحاشا<sup>(٢)</sup> عليهم، نزل به مرة أضياف فأطعمهم تمرأ وهجاهم، وذكر أنهم أكلوه بنواه. وأما أبو الأسود فتصدق على سائل بتمرة. فقال له: جعل الله نصيبك من الجنة مثلها. وكان يقول: لو أطعنا المساكين في أموالنا كنا أسوأ حالاً منهم. وأما خالد بن صفوان فكان يقول للدرهم إذا دخل عليه: يا عيار<sup>(٣)</sup>، كم تعير، وكم تطوف وتطير، لأطيلن حبسك، ثم يطرحه في الصندوق ويقفل عليه. وقيل له: لم لا تنفق ومالك عريض. فقال الدهر أعرض منه. وأنشد بعضهم:

وهبني جمعته المال ثم خزنته      وحانت وفاتي هل أزدأ به عمرا  
إذا خزن المال البخيل فإنه      سيورثه غمأ، ويعقبه وزرا

واستاذن حنظلة على صديق بخيل فقيل: هو محموم. فقال: كلوا بين يديه حتى يعرق. وكتب سهل بن هارون كتاباً في مدح البخل وأهداه إلى الحسن بن سهل فوقع على ظهره قد جعلنا ثوابك عليه ما أمرت به فيه.

وقال ابن أبي فتن:

ذريني وإتلافي لمالي فإنني      أحب من الأخلاق ما هو أجمل  
وإن أحق الناس باللوم، شاعرٌ      يلوم على البخل الرجال ويبخل

وكان عمر بن يزيد الأسدي بخيلاً جداً أصابه القولنج في بطنه، فحفته الطيب بدهن كثير فانحل ما في بطنه في

(١) سورة: النساء، الآية: ٣٧.

(٢) فتحاشا: يتقول بالفحش.

(٣) يا عيار: مكتر الذهب والمجيء.

الطست، فقال لغلامه: اجمع الدهن الذي نزل من الحقنة واسرج به. وكان المنصور شديد البخل جداً، مر به مسلم الحادي في طريقه إلى الحج فحدا له يوماً بقول الشاعر:

أغرَّيْنِ الحَاجِيَيْنِ نَوْرُهُ      يَزِينُهُ حِيَاؤُهُ وَخِيَرُهُ  
وَمَسْكُهُ يَشُوْبُهُ كَافُوْرُهُ      إِذَا تَغَلَّدَى رَفَعْتَ سَتُوْرُهُ

فطرب حتى ضرب برجله المحمل. ثم قال: يا ربيع أعطه نصف درهم. فقال مسلم: نصف درهم يا أمير المؤمنين، والله لقد حدوت لهشام، فأمر لي بثلاثين ألف درهم. فقال: تأخذ من بيت مال المسلمين ثلاثين ألف درهم يا ربيع. وكُلُّ به مَنْ يَسْتَخْلَصُ مِنْ هَذَا الْمَالِ. قال الربيع: فما زلت أمشي بينهما وأروضه حتى شرط مسلم على نفسه أن يحدو له في ذهابه وإيابه بغير مؤنة.

وكان أبو العتاهية ومروان بن أبي حفصة بخيلين يضرب بيخلهما المثل. قال مروان: ما فرحت بشيء أشد مما فرحت بمائة ألف فرهم وهبها إليّ المهدي فوزنتها فرجحت درهما، فاشترت به لحماً. واشترى يوماً لحماً بدرهم، فلما وضعه في القدر دعاه صديقه فرد اللحم على القصاب بنقصان دانقين، فجعل القصاب ينادي على اللحم ويقول: هذا لحم مروان. واجتاز يوماً بأعرابية فأضافته. فقال: إن وهب لي أمير المؤمنين مائة ألف درهم وهبت لك درهماً فوهبه سبعين ألف درهم فوهبها أربعة دواتق.

ومن الموصوفين بالبخل أهل مرو. يقال إن من عادتهم إذا تراقفوا في سفر أن يشتري كل واحد منهم قطعة لحم ويشكها في خيط، ويجمعون اللحم كله في قدر ويمسك كل واحد منهم طرف خيطه، فإذا استوى، جر كل منهم خيطه وأكل لحمه وتقاسموا المرق. وقيل لبخيل: مَنْ أَشْجَعَ النَّاسَ؟ قال: مَنْ سَمِعَ وَقَعَ أَضْرَاسِ النَّاسِ عَلَى طَعَامِهِ، وَلَمْ تَشَقَّ مَرَاتِهِ. وقيل لبعضهم: أما يكسوك محمد بن يحيى؟ فقال: والله لو كان له بيت مملوء إبراً وجاء يعقوب ومعه الأنبياء شفعاء والملائكة ضمناً، يستعير منه إبرة ليخيط بها قميص يوسف الذي قُدَّ<sup>(١)</sup> من دبر ما أعاره إياها، فكيف يكسوني؟ وقد نظم ذلك من قال:

لَوْ أَنَّ دَارَكَ أَبْتَتَّ لَكَ وَاحْتَشَّتْ      إِبْرًا يَضِيْقُ بِهَا فَنَاءُ الْمَنْزَلِ  
وَأَتَاكَ يَوْسُفُ يَسْتَعِيرُكَ إِبْرَةَ      لِيَخِيْطَ قَدَّ قَمِيصِهِ لَمْ تَفْعَلِ

وكان المتنبى بخيلاً جداً، مدحه إنسان بقصيدة فقال له: كم أملت منا على مدحك؟ فقال: عشرة دنانير. قال له: والله لو نذفت قطن الأرض بقوس السماء على جباه الملائكة ما دفعت لك دانقاً<sup>(٢)</sup>. وقال دعبل: كنا عند سهل بن هارون فلن نبرح حتى يكاد يموت من الجوع. فقال: وملك يا غلام آتنا غداءنا، فأتى بقصعة فيها ديك مطبوخ تحت ثريد قليل، فتأمل الديك فرآه بغير رأس. فقال لغلامه: وأين الرأس؟ فقال: رميته. فقال والله إني لأكره من يرمي برجله، فكيف برأسه، ويحك أما علمت أن الرأس رئيس الأعضاء، ومنه يصيح الديك، ولولا صوته ما أريد وفيه فرقه الذي يتبرك به، وعينه التي يضرب بها المثل، فيقال شراب كعين الديك، ودماغه عجيب لوجع الكلية، ولم تر عظماً

(١) قُدَّ: قطع وشق.

(٢) الدانق: ١/٦ من الدرهم.

أهش تحت الأسنان من عظم رأسه وهبك ظننت أنني لا آكله؛ أما قلت عنده مَنْ يأكله؟ أنظر في أي مكان رميته فأنتي به. فقال: والله لا أدري أين رميته. فقال: لكني أنا أعرف أين رميته، رميته في بطنك الله حسبك. وقيل: من الناس مَنْ يبخل بالطعام، ويجود بالمال. وبالعكس. قال بعضهم في أبي دلف:

أبو دلفٍ يضيغُ ألف ألفٍ      ويضربُ بالحسام على الرغيفِ  
أبو دلفٍ لمطبخه قتا<sup>(١)</sup>      ولكن دونه سلُّ السيوفِ

واشتكى رجل مروزي صدره من سعال، فوصفوا له سويق اللوز، فاستقل التفقة ورأى الصبر على الوجع أخف عليه من الدواء. فبينما هو يماطل الأيام، ويدافع الآلام، إذ أتاه بعض أصدقائه فوصف له ماء النخالة، وقال إنه يجلو الصدر، فأمر بالنخالة فطبخت له وشرب من مائها، فجلا صدره ووجده يعصم. فلما حضر غداؤه أمر به. فرفع إلى لعشاء، وقال لامرأته: إطبخي لأهل بيتنا النخالة، فإني وجدت ماءها يعصم، ويجلو الصدور. فقالت: لقد جمع الله لك بهذه النخالة بين دواء وغذاء فالحمد لله على هذه النعمة.

وعن خاقان بن صبيح قال: دخلت على رجل من أهل خراسان ليلاً فأتانا بمسرجة فيها فتيلة في غاية الرقة، وقد علّق فيها عوداً بخيط، فقلت له: ما بال هذا العود مربوطاً، قال: قد شرب الدهن، وإذا ضاع ولم نحفظه احتجنا إلى غيره فلا نجد إلا عوداً عطشاناً، ونخشى أن يشرب الدهن. قال: فبينما أنا أتعجب، وأسأل الله العافية إذا دخل علينا شيخ من أهل مرو فنظر إلى العود فقال للرجل: يا فلان، لقد فررت من شيء، ووقعت فيما هو شر منه، أما علمت أن الريح والشمس يأخذان من سائر الأشياء، وينشفان هذا العود، لِمَ لا اتخذت مكان هذا العود إبرة من حديد، فإن الحديد أملس وهو مع ذلك غير نشاف، والعود أيضاً بما يتعلق به شعرة من قطن الفتيلة فينقصها. فقال له الرجل الخراساني: أرشدك الله، ونفع بك، فلقد كنت في ذلك من المسرفين. وقال الهيثم بن عدي: نزل على أبي حفصة الشاعر، رجل من اليمامة فأخلى له المنزل ثم هرب مخافة أن يلزمه قراه في هذه الليلة. فخرج الضيف واشترى ما احتاج إليه ثم رجع وكتب إليه:

يا أيُّها الخارجُ من بيتي      وهارباً من شدة الخوفِ  
ضيفُك قد جاءَ بزادٍ له      فارجعْ وكن ضيفاً على الضيفِ

واشترى رجل من البخلاء داراً وانتقل إليها، فوقف بيابه سائل فقال له: فتح الله عليك. ثم وقف ثان فقال له مثل ذلك. ثم وقف ثالث فقال له مثل ذلك. ثم التفت إلى ابنته فقال لها: ما أكثر السؤال في هذا المكان. قالت: يا أبت ما دمت مستمسكاً لهم بهذه الكلمة فما تبالي، كثروا، أم قلووا.

والأم اللثام وأبخلهم حميد الأرقط الذي يقال له: هجاء الأضياف، وهو القائل في ضيف له يصف أكله بهذا لبيت من قصيدة له:

ما بين لقمته الأولى إذا انحدرت      وبين أخرى تليها قيدُ أظفور<sup>(٢)</sup>

(١) قتا: راحة شواء.

(٢) أظفور: هذه كناية عن سرعة توالي اللقم.

وقال فيه أيضاً:

تجهز كفاه ويحدر حلقة  
إلى الزور<sup>(١)</sup> ما ضمت عليه الأنامل  
وأكل أعرابي مع أبي الأسود رطباً فأكثر، ومد أبو الأسود يده إلى رطبه ليأخذها فسبقه الأعرابي إليها فسقطت  
منه في التراب، فأخذها أبو الأسود وقال: لا أدعها للشيطان يأكلها. فقال الأعرابي: والله ولا لجبريل وميكائيل لو نزلا  
من السماء ما تركها. وقال أعرابي لتزيل نزل به: نزلت بواد غير ممطور ورجل بك غير مسرور، فأقم بعدم، أو ارحل  
بندم. وللحمدوني:

رأيتُ أبا زرارة قال يوماً  
لئن وَضَعَ الخوانَ ولاحَ شخصٌ  
فقال سوى أيبك فذاك شيخٌ  
فقامَ وقالَ مِن حنقٍ إليه  
أبي وابنِ أبي والكلبُ عندي  
وقال له ابنُ لي يا ابنِ كلبِ  
إذا حضرَ الطعامَ فلا حقوقٌ  
فما في الأرضِ أبقحُ من خوانِ

فأين هذا من القائل:

بخیلٌ يرى في الجود عاراً وإنما  
إذا المرءُ أثرى ثم لم يرج نفعه

وقال آخر:

وأمره بالبخل قلتُ لها اقصري  
أرى الناسَ إخوانَ الكريمِ وما أرى

وقالوا: إذا سألت لثيماً شيئاً فعاجله، ولا تدعه يفكر، فإنه كلما فكر ازداد بعداً. وقال رباعي الهمداني:

جمعتُ صنوفَ المال من كل جهةٍ  
وإنني لأرجو أن أموت وتنقضي

وأنشد الجاحظ لأبي الشمقمق:

ممن تعلمت هذا  
أما سررت بعبد

أن لا تجود بشيء  
لعبد حاتم طيء

(١) الزور: أعلى الصدر.

(٢) بمنزلة: أي بمنزلة واحدة.

وما قالته الشعراء في البخله وطعامهم: فمن أهدى ما قيل فيهم بيت جرير في بني تغلب:

والتغلبى إذا تنحنحَ للقرى

حكَّ استَه<sup>(١)</sup> وتمثل الأمثالا

وله أيضاً فيهم:

قومٌ إذا أكلوا أخفوا كلامهم

واستوثقوا من رتاج الباب والدار

قومٌ إذا استببح الضيفان كلبهم

قالوا لأهمهم بولي على النار

فتمنع البول شحا أن تجودَ به

وما تبولُ لهم إلا بمقدار

والخبزُ كالعنبرِ الهنديِّ عندهم

والقمحُ خمسون اردباً بدينار

فأين هؤلاء من الذي قاله فيه الشاعر:

أبلجٌ بين حاجبيه نوره

إذا تغدى رُفعت ستوره

وقال بعضهم في بخيل:

أتانا بخيلٌ بخبزٍ له

كمثل الدرهم في رقتة

إذا ما تنفسَ حول الخوان

تطايبر في البيت من خفته

وقال آخر:

تراهم خشبة الأضيافِ خرسا

يقيمون الصلاة بلا أذان

وقال آخر، وقد بات عند بخيل:

فبتنا كأننا بينهم أهل ماتم

على ميست مستودع بطن ملحد<sup>(٢)</sup>

يحدثُ بعضاً بعضنا بمصابه

ويأمر بعضنا بعضاً بالتجلد

وقال آخر:

وجيرة لا نرى في الناس مثلهم

إذا يكون لهم عيدٌ وإفطار

إن يوقدوا يوسعوننا من دخانهم

وليس يبلغنا ما تطبخُ النار

وقال آخر وأجاد:

فصدق إيمانه إن قال مجتهداً

لا والرغيف فذاك البرُّ من قسمة

فإن هممت به فاعبث بخبزته

فإن موقعتها من لحمه ودمه

قد كان يعجبني لو أن غيرته

على جرادقه<sup>(٣)</sup> كانت على حرمة

(١) الأست: المعجز.

(٢) ملحد: مدفون في قبر.

(٣) الجرادق: الرغيف.

وقال آخر:

ذهب الكرام فلا كرام  
من لا يقبل ولا ينيب

وقال آخر:

خيلني من كعب أعيانا أحاكما  
ولا تبخلا بخل ابن قزعة إنه  
إذا جتته في حاجة سد بابيه

وقال آخر:

له يومان، يوم ندى ويوم  
فأما جوده فعلى قحاب

وقال آخر:

زفت إلى نهران من صفو فكرتي  
فقبلها عشراً وهام بجبها

وقال آخر:

لو عبر البحر بأواجه  
وكفمه مملوءة خردلا

وقال آخر:

يا قائماً في داره قاعداً  
قد مات أضيفك من جوعهم

وقال آخر:

نوالك دونه شوك القتاد  
فلو أبصرت ضيفاً في منام

وقال آخر:

لا تعجبن لخبز زل من يديه  
وقال ابن أبي حازم:

(١) المضاريط: لثام الأجراء.

وقالوا قد مدّخت فتى كريماً      فقلتُ وكيف لي بفتى كريمٍ  
بلوتُ ومرّاً بي خمسون حولاً      وحسبُك بالمجرّبِ من عليمٍ  
فلا أحدٌ يعدُّ ليومٍ خيرٍ      ولا أحدٌ يجودُ على عديمٍ

ومن رؤساء أهل البخل: محمد بن الجهم، وهو الذي قال وددت لو أن عشرة من الفقهاء وعشرة من الخطباء، وعشرة من الشعراء، وعشرة من الأدباء، تواطؤوا على ذمي واستسهلوا شتمي حتى يتشر ذلك في الآفاق، فلا يمتد إليّ أمل أمل، ولا يسط نحوي رجاء راج. وقال له أصحابه يوماً: إنا نخشى أن نقعد عندك فوق مقدار شهوتك، فلو جعلت لنا علامة نعرف بها وقت استئقالك لمجالستنا. فقال: علامة ذلك أن أقول يا غلام هات الغداء.

وقال عمر بن ميمون: مررت ببعض طرق الكوفة فإذا أنا برجل يخاصم جاراً له. فقلت: ما بالكما؟ فقال أحدهما: إن صديقاً لي زارني فاشتهد رأياً فاشترته وتغدينا، وأخذت عظامه فوضعتها على باب داري أتجمل بها، فجاء هذا فأخذها ووضعها على باب داره يوهم الناس إنه هو الذي اشترى الرأس.

قال رجل من البخلاء لأولاده: اشترؤا لي لحماً، فاشترؤوه، فأمر بطبخه فلما استوى أكله جميعه حتى لم يبق في يده إلا عظمة، وعيون أولاده ترمقه. فقال: ما أعطي أحداً منكم هذه العظمة حتى يحسن وصف أكلها. فقال ولده الأكبر: أمشمشها يا أبت وأمضها حتى لا أدع للذر فيها مقيلاً. قال: لست بصاحبها. فقال الأوسط: أوكها يا أبت وألحسها حتى لا يدري أحد لعام هي أم لعامين. قال: لست بصاحبها. فقال الأصغر: يا أبت أمصها، ثم أدقها، وأسفها سفاً. قال: أنت صاحبها وهي لك زادك الله معرفة وحزماً.

ووقف أعرابي على أبي الأسود وهو يتغذى فسلم فردّ عليه ثم أقبل على الأكل، ولم يعزم عليه. فقال له الأعرابي: أما أني قد مررت بأهلك. قال: كذلك كان طريقك. قال: وامراتك حبلى. قال: كذلك كان عهدي بها. قال: قد ولدت. قال: كان لا بد لها أن تلد. قال: ولدت غلامين. قال: كذلك كانت أمها. قال: مات أحدهما. قال: ما كانت تقوى على إرضاع اثنين. قال: ثم مات الآخر، قال: ما كان ليبي بعد موت أخيه، قال: وماتت الأم. قال: حزناً على ولديها. قال: ما أطيب طعامك قال: لأجل ذلك أكلته وحدي والله لا ذقته يا أعرابي.

وقيل خرج أعرابي قد ولاه الحجاج بعض النواحي فأقام بها مدة طويلة، فلما كان في بعض الأيام ورد عليه أعرابي من حيه فقدم إليه الطعام. وكان إذا ذاك جائعاً فسأله عن أهله وقال: ما حال ابني عمير؟ قال: على ما تحب قد ملأ الأرض والحي رجلاً ونساء. قال: فما فعلت أم عمير؟ قال: صالحة أيضاً. قال: فما حال الدار؟ قال: عامرة بأهلها. قال: وكلبنا إيقاع؟ قال: ملأ الحي نبهاً. قال: فما حال جملي زريق؟ قال: على ما يسرك. قال: فالتفت إلى خادمه، وقال: ارفع الطعام فرفعه، ولم يشبع الأعرابي، ثم أقبل عليه يسأله وقال: يا مبارك الناصية<sup>(١)</sup> أعذ عليّ ما ذكرت. قال: سل عمّا بدا لك. قال: فما حال كليي إيقاع؟ قال: مات. قال: وما الذي أماته؟ قال: اختنق بعظمة من عظام جملك زريق فمات. قال: أو مات جملي زريق؟ قال: نعم. قال: وما الذي أماته؟ قال: كثرة نقل الماء إلى قبر أم عمير. قال: أو ماتت أم عمير؟ قال: نعم. قال: وما الذي أماتها؟ قال: كثرة بكائها على عمير. قال: أو ماتت

(١) الناصية: مقدمة شعر الرأس.

عمير؟ قال: نعم. قال: وما الذي أماته، قال؛ سقطت عليه الدار. قال: أو سَقَطَتِ الدار. قال: نعم. قال: فقام له بالعصى ضارباً فولّى من بين يديه هارباً.

وحكى بعضهم قال: كنت في سفر فضلت عن الطريق، فرأيت بيتاً في الفلاة، فأتيته فإذا به أعرابية، فلما رأته قلت: مَنْ تكون؟ قلت: ضيف. قالت: أهلاً ومرحباً بالضيف، انزل على الرحب والسعة. قال: فنزلت فقدمت لي طعاماً فأكلت، وماء فشربت، فبينما أنا على ذلك إذا أقبل صاحب البيت. فقال: مَنْ هذا؟ فقالت ضيف. فقال: لا أهلاً ولا مرحباً، ما لنا وللضيف. فلما سمعتُ كلامه ركبت من ساعتى وسرت، فلما كان من الغد رأيت بيتاً في الفلاة فقصدته فإذا فيه أعرابية فلما رأته قلت: مَنْ تكون؟ قلت: ضيف. قالت: لا أهلاً ولا مرحباً بالضيف، ما لنا وللضيف، فبينما هي تكلمني إذا أقبل صاحب البيت. فلما رأته قلت: من هذا؟ قالت ضيف. قال: مرحباً وأهلاً بالضيف. ثم أتى بطعام حسن فأكلت، وماء فشربت، فتذكرت ما مرّ بي أمس فتبسمت. فقال: مِمَّ تبسّمك؟ فقصدت عليه ما اتفق لي مع تلك الأعرابية وبعّلها، وما سمعت منه ومن زوجته، فقال: لا تعجب إن تلك الأعرابية التي رأيتها هي أختي، وإن بعّلها أخو امرأتي هذه. فغلب على كل طبع أهله.

وحكايات هؤلاء، وأمثالهم كثيرة، وأخبارهم ونوادهم شهيرة، وفيما ذكرته كفاية، وأسأل الله تعالى التوفيق والهداية، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.